7 - منزلة العلماء (7)

وقفات في بيان المراد بالعلماء

وضابط محبتهم وبيان علماء السوء

الحَمدُ للهِ... أَمَّا بَعدُ:

فَتَقَدَّمَ الكَلامُ فِي جُمَعٍ ماضِيَةٍ عَن شَيءٍ مِن مَنزِلَةِ العُلَماءِ، وذِكرِ بعضِ ما ثَبَتَ فِي حَقِّهِم مِنَ الخِصالِ فِي الكِتابِ وَالسُّنَّةِ، وذِكرِ شَيءٍ مِنَ الآثارِ المَرويَّةِ عَنِ السَّلَفِ فِي فَضلِ العِلمِ وأَهلِهِ.

وتَقَدَّم أَيضاً: شَيءٌ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِإهانَةِ العُلَماءِ، وما يترَتَّبُ عَلى مَن أَهانَهُم مِنَ الوَعيدِ الشَّديدِ، وكَيفَ أَنَّ أعداءَ الإِسْلامِ سَخَّرُوا جُهوداً مالِيَّةً وبَشَرِيةً فِي سَبيلِ هَضمِ مَنزِلَةِ العُلَماءِ.

إِضافةً إِلى ذِكرِ صُوَرٍ فِيها ازدِراءٌ لِلعُلَماءِ، وَإِجهاضٌ لِشَريفِ مَنزِلَتِهِم وَعَظيمِ شَأنِهِم.

وسَيَكونُ الكلامُ فِي هَذهِ الجُمُعَةِ -إِن شاءَ اللهُ تَعَالَى- عَن أَربَعِ وَقَفاتٍ مُتَعَلِّقَةٍ بِضوابِطَ لا بُدَّ مِن بَيانِها فِي هَذا المَقامِ العَظيمِ، مَقامِ أَهلِ العِلمِ.

فَيُقالُ -وَباللهِ تَعَالَى التَوفيقُ:

- الوَقفَةُ الأُولَى:

إِنَّ مَحَبَّةَ العُلَماءِ ومَعرِفَةَ قَدرِهِم ومَكانَتِهِم مَأطُورةٌ بِإِطارٍ شَرعِيٍّ، عَلى وفقِ ما جاءَ فِي الآياتِ، وثَبَتَ فِي الأحاديثِ، ولَيسَ المُرادُ مِن ذَلِكَ: أَن يُغلَى فِي تَقديرِهِم وَرَفعِ مَنزِلَتِهِم فَوقَ المَنزِلَةِ الشَّرعِيَّةِ، كَما يَزعُمُ ذَلِكَ شَراذِمُ الرَّفضِ، مِن أَنَّ أَئِمَتَهُم بَلغُوا مَرتبةً لَم يَصِل إِليها مَلَكٌ مُقَرَّبٌ ولاَ نَبِيٌّ مُرسَلٌ!! وزَعَمُوا أَيضاً أَنَّ أَئِمَّتَهُم مَعصومُونَ مِن كُلِّ دَنَسٍ، وأَنَّهُم لاَ يُذنِبونَ ذَنباً صَغِيراً وَلاَ كَبيراً، وَلاَ يَعصُونَ اللهَ ما أَمَرَهُم وَيَفعَلونَ ما يُؤمَرونَ!! بَل قَد أَفرَدَ أحدُ مُصَنِّفِيهِم باباً سَمَّاهُ: (بابُ أَنَّ الأَئِمَّةَ يَعلَمُونَ عِلمَ ما كانَ وما يَكونُ، وأَنَّهُ لاَ يَخفَى عَلَيهِم شَيءٌ..).

{وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَراً مِّنَ الْقَوْلِ وَزُوراً} [سورة المجادلة].

أَو كَما يَزعَمُ غُلاةُ التَّصَوُّفِ فِي مَنزِلَةِ مُريدِيهِم أَو أَشياخِهِم، بِأَنَّ لَهُمُ الطَّاعَةَ المُطلَقَةَ، وأَنَّ عَلى أَتباعِهِم الانقيادَ التَّامَ دُونَ تَرَدُّدٍ أَو استِفهامٍ، بَل عَلى التَّابِعِ أَن يَكونَ بَينَ يَدَي مَتبوعِهِ كَالمَيِّتِ بَينَ يَدَي مُغَسِّلِهِ يُقَلِّبُهُ كَيفَ يَشاءُ، كُلُّ ذَلِكَ بِزَعمِ أَنَّ طَرِيقَةَ الأَشياخِ وَالمُرِيدِينَ هِي جادَّةُ الحَقِّ، مَن خالَفَها فَقد ضَلَّ.

{كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً} [سورة الكهف: 5].

قالَ شَيخُ الإِسلامِ ابنُ تَيمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (فَمَن جَعَلَ شَخصاً مِنَ الأَشخاصِ -غَيرَ رَسولِ اللهِ ﷺ- مَن أَحَبَّهُ ووافَقَهُ كانَ مِن أَهلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ، ومَن خالَفَهُ كانَ مِن أَهلِ البِدعَةِ والفُرقَةِ، كَما يُوجَدُ ذَلِكَ فِي الطَّوائِفِ مِن أتباعِ أَئِمَّةِ الكَلامِ فِي الدِّينِ وغَيرِ ذَلِكَ؛ كانَ مِن أَهلِ البِدَعِ والضَّلالِ والتَّفَرُّقِ).

وقَالَ الإِمامُ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (وَلَو أَنَّا كُلَّما أَخطأَ إِمامٌ فِي اجتِهادِهِ فِي آحادِ المَسائِلِ خَطأً مَغفوراً لَهُ، قُمنا عَلَيهِ وبَدَّعناهُ وهَجَرناهُ؛ لَما سَلِمَ مَعنا لاَ ابنُ نَصرٍ ولاَ ابنُ مُندَهْ، ولاَ مَن هُو أَكثرُ مِنهُما، واللهُ هُوَ هادِي الخَلقِ إِلى الحَقِّ، وهُوَ أَرحَمُ الرَّاحِمينَ، فَنعوذُ بِاللهِ مِنَ الهَوى والفَضاضَةِ) انتَهى كَلامُهُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى.

فَمَحَبَّةُ العُلَماءِ وتَوقيرُهُم لاَ يَلزَمُ مِنهما ادِّعاءُ العِصمَةِ لَهُم، بَل هُم يُخطِئونَ ويُصيبُونَ، شَأنُهُم فِي ذَلِكَ كَشأنِ سائِرِ النَّاسِ، لَكِنَّ مَقامَهُم عِندَ بَيانِ الخَطأِ يَختَلِفُ عَن مَقامِ غَيرِهِم، فَلَهُم مِنَ التَّقديرِ والتَّوقيرِ ما يَليقُ بِهِم، فَإِن كانَ خَطَؤُهُم فِي مقامِ الفُتيا، فَهُم مَعَ ذَلِكَ مَأجورونَ أَجراً واحِداً، كَما قَالَ ﷺ: «إِذا اجتَهَدَ الحاكِمُ فَحَكَمَ فَأصابَ فَلَهُ أَجرانِ، وإِذا اجتَهَدَ فَحَكَمَ فأَخطأَ فَلَهُ أَجرٌ واحِدٌ»(Î).

- الوَقفَةُ الثانِيَةُ:

مَا المُرادُ بِالعالِمِ؟ أَو مَنِ الذِي يَستَحِقُّ أَن يُوصَفَ بِلَقَبِ العالِمِ، فَيَستَحِقُّ مَا لِلعُلَماءِ مِنَ المَكانَةِ والتَّوقِيرِ؟

يُقالُ هَا هُنَا:

لَقد استَرخَصَ كَثيرٌ مِنَ النَّاسِ إِطلاقَ هَذا اللَّقَبِ عَلى غَيرِ أَهلِهِ، فَوُصِفَ بِهِ أُناسٌ هُم أَبعَدُ النَّاسِ عَن مُحيطِ العُلَماءِ، فَلا سَمتَ كَسَمتِ العُلَماءِ، وَلاَ وَقارَ كَوقارِ العُلَماءِ، أَمَّا بِضاعَتُهُم العِلمِيَّةُ فَهِيَ بِضاعَةٌ مُزجاةٌ.

وَقَد تَقَلَّبَت مَفاهِيمُ بعضِ النَّاسِ فَابتَذَلُوا لَقَبَ العالِمِ، فأَنزَلُوهُ عَلى أُناسٍ تَمَيَّزوا بِخَصلَةٍ مُعيَّنَةٍ دُونَ غَيرِها.

فَأُطلِقَ لَقَبُ «العالِمِ» عَلى: مَن كَثُرَ كَلامُهُ وجِدالُهُ، وفُتِنوا بِهِ إِطراءً وإِعجاباً وسَماعاً.

(Î) رواه البخاري (7352)، ومسلم (1716).

قالَ الإمامُ ابنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (وقَد فُتِنَ كَثيرٌ مِنَ المُتأخِرِّينَ بِهَذا، فَظَنُّوا أَنَّ مَن كَثُرَ كَلامُهُ وجِدالُهُ وَخِصامُهُ فِي مَسائِلِ الدِّينِ فَهُو أَعلَمُ مِمَّن لَيس كَذلِكَ، وَهذا جَهلٌ مَحضٌ، وانظُر إِلى أَكابِرِ الصَّحابَةِ وعُلَمائِهِم، كَأَبِي بَكرٍ وعُمَرَ وعَلِيٍّ ومُعاذٍ وابنِ مَسعودٍ وزَيدِ ابنِ ثابِتٍ، كَيفَ كانَ كلامُهُم أَقَلَّ مِن كَلامِ ابنِ عَبَّاسٍ وهُم أَعلَمُ مِنهُ، وكَذلِكَ كَلامُ التَّابِعينَ أَكثَرُ مِن كَلامِ الصَّحابَةِ، وَالصَّحابَةُ أَعلَمُ مِنهُم، وكَذَلِكَ تابِعُو التَّابِعينَ كَلامُهُم أَكثَرُ مِن كَلامِ التَّابِعينَ، والتَّابِعونَ أَعلمُ مِنهم.

فَلَيسَ العِلمُ بِكَثرةِ الرِّوايَةِ وَلاَ بِكَثرةِ المَقال، وَلَكِنَّهُ نُورٌ يُقذَفُ فِي القَلبِ يَفهَمُ بِهِ العَبدُ الحَقَّ، ويُمَيِّزُ بِهِ بَينَهُ وبينَ الباطِلِ، ويُعَبِّرُ عَن ذَلِكَ بِعباراتٍ وَجيزَةٍ مُحَصِّلةٍ لِلمَقاصِدِ) انتَهى كَلامُهُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى.

ولَقَد أَكثَرَ أَهلُ العِلمِ مِن ذَمِّ الكَلامِ الذِي يَتَكَلَّفُ صاحِبُهُ فِي إِخراجِهِ، ويُبالِغُ فِي الإِفراطِ فِي ذَلِكَ.

قَالَ بَعضُ السَّلَفِ: (إِذا أَرادَ اللهُ بِعَبدٍ خَيراً فَتَحَ لَهُ بابَ العَمَلِ، وأَغلَقَ عَنهُ بابَ الجَدَلِ، وإِذا أَرادَ اللهُ بِعَبدٍ شرّاً أَغلَقَ عَنهُ بابَ العَمَلِ، وفَتَحَ لَهُ بابَ الجَدَلِ).

وَقَالَ الإِمامُ مالِكٌ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (أَدرَكتُ أَهلَ هَذِهِ البَلدةِ [يُرِيدُ المَدينةَ النَّبَوِيَّةَ] وإِنَّهُم لَيَكرَهُونَ هَذا الإِكثارَ الذِي عَلَيهِ النَّاسُ اليَومَ -يُرِيدُ المَسائِلَ).

وكانَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى يَعيبُ كَثرةَ الكَلامِ والفُتيا، يَقولُ: (يَتَكَلَّمُ أَحدُهُم كَأَنَّهُ جَمَلٌ مُغتَلِمٌ) يَقولُ: هُوَ كَذا هُو كَذا، يَهْدُرُ فِي كَلامِهِ. وكانَ يَكرَهُ الجَوابَ فِي كَثرةِ المَسائِلِ، وكانَ يَقولُ: المِراءُ والجِدالُ فِي العِلمِ يَذهَبُ بِنورِ العِلمِ).

- الوَقفَةُ الثَّالِثةُ:

مِن أَوصافِ العُلَماءِ: أَكثَرَ أَهلُ العِلمِ مِنَ الكَلامِ فِي هَذا المَبحَثِ؛ لِعَظيمِ شَأنِهِ:

قَالَ الإِمامُ ابنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى، فِي وَصفِ العُلَماءِ المُستَحِقِّينَ لِهَذا اللَّقَبِ: (يُسيئونَ الظَنَّ بِأَنفُسِهِم، ويُحسِنونَ الظَنَّ بِمَن سَلَفَ مِنَ العُلَماءِ، ويُقِرُّونَ بِقُلوبِهِم وَأَنفُسِهِم بِفَضلِ مَن سَلَفَ عَلَيهِم، وبِعَجزِهِم عَن بُلوغِ مَراتِبِهِم، والوُصولِ إِلَيها أَو مُقارَبَتِها، ومَا أَحسَنَ قَولَ أَبِي حَنيفَةَ وقَد سُئِلَ عَن عَلقَمَةَ وَالأَسودِ: أَيُّهُما أَفضَلُ؟ فَقالَ: واللهِ مَا نَحنُ بِأَهلٍ أَن نَذكُرَهُم، فَكَيفَ نُفَضِّلُ بَينَهُم؟!

وكانَ ابنُ المُبارَكِ إِذا ذَكَرَ أَخلاقَ مَن سَلَفَ يُنشِدُ:

لا تَعرِضَـنَّ لِذِكرِنا مَـعَ ذِكرِهِـــم لَيسَ الصَّحِيحُ إِذَا مَشَى كَالمُقعَـدِ)

وقَالَ أَيضاً -أي ابنُ رجبٍ-: (وَمِن عَلاماتِ العِلمِ النافِعِ أَنَّهُ يَدُلُّ صاحِبَهُ عَلى الهَرَبِ مِنَ الدُّنيا، وأَعظمُها الرِّياسَةُ والشُّهرَةُ والمَدحُ، فَالتَّباعُدُ عَن ذَلِكَ وَالاجتِهادُ فِي مُجانَبَتِهِ مِن علاماتِ العِلمِ النافِعِ. فَإِذا وَقَعَ شَيءٌ مِنَ ذَلِكَ مِن غَيرِ قَصدٍ وَاختيارٍ، كانَ صاحِبُهُ فِي خَوفٍ شَديدٍ مِن عاقِبَتِهِ، بِحَيثُ أَنَّهُ يَخشَى أَن يَكونَ مَكراً أَو استِدراجاً، كَما كانَ الإِمامُ أَحمَدُ يَخافُ ذَلِكَ عَلى نَفسِهِ عِندَ اشتِهارِ اسمِهِ وبُعْدِ صِيتِهِ.

ومِن عَلاماتِ العِلمِ النافِعِ: أَنَّ صاحِبَهُ لاَ يَدَّعِي العِلمَ ولاَ يَفخَرُ بِهِ عَلى أَحَدٍ، وَلاَ يَنسِبُ غَيرَهُ إِلى الجَهلِ إِلاَّ مَن خالَفَ السُّنَّةَ وأَهلَها، فَإِنَّهُ يَتَكَلَّمُ غَضَباً للهِ، لاَ غَضَباً لِنَفسِهِ، وَلاَ قَصداً لِرِفعَتِها عَلى أَحَدٍ) اهـ.

ومِن هَدْيِ العُلَماءِ قِلَّةُ الكَلامِ وعَدَمُ المُماراةِ.

قالَ ابنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُما يُخاطِبُ قَوماً يَتَمارونَ فِي الدِّينِ: (أَمَا عَلِمتُم أَنَّ للهِ عِباداً أَسكَتَتهُم خَشيَةُ اللهِ مِن غَيرِ عِيٍّ وَلاَ بَكَمٍ؟ وأَنَّهُم لَهُمُ العُلَماءُ والفُصَحاءُ والطُّلَقاءُ وَالنُّبَلاءُ، العُلَماءُ بِأَيامِ اللهِ، غَيرَ أَنَّهُم إِذا تَذَكَّروا عَظَمَةَ اللهِ طاشَت عُقولُهُم، وانكَسَرَت قُلوبُهُم، وانقَطَعَت أَلسِنَتُهُم، حَتّى إِذا استَفاقُوا مِن ذَلِكَ يُسارِعونَ إِلى اللهِ بِالأعمالِ الزَّاكِيةِ، يَعُدُّونَ أنفُسَهُم مِنَ المُفَرِّطينَ! وإِنَّهُم لأَكياسٌ أَقوياءُ مَعَ الظالِمينَ والخاطِئينَ، وإِنَّهُم لأَبرارٌ بُرآءُ، إِلاَّ أَنَّهُم لاَ يَستَكثِرونَ لَهُ الكَثيرَ، وَلاَ يَرضَوْن لَهُ بِالقَليلِ، وَلاَ يُدلُونَ عَلَيهِ بِالأعمالِ، هُم حَيثُما لَقِيتَهُم مُهتَمُّونَ مُشفِقونَ وَجِلونَ خائِفونَ).

وَقالَ الإِمامُ ابنُ رَجَبٍ أَيضاً: (فَمَن عَرَفَ قَدرَ السَّلَفِ، عَرَفَ أَنَّ سُكوتَهُم عَمَّا سَكَتُوا عَنه مِن ضُروبِ الكَلامِ، وكَثرةِ الجِدالِ والخِصامِ، والزيادةِ فِي البَيانِ عَلى مِقدارِ الحاجَةِ، لَم يَكُن عِيّاً وَلاَ جَهلاً وَلاَ قُصوراً، وإِنَّما كانَ وَرَعاً وخَشيَةً للهِ، واشتِغالاً عَمَّا لاَ يَنفَعُ بِما يَنفَعُ، وسَواءٌ فِي ذَلِكَ كَلامُهُم فِي أُصولِ الدِّينِ وفُروعِهِ، وفِي تَفسيرِ القُرآنِ والحَديثِ، وفِي الزُّهدِ والرَّقائِقِ، والحِكَمِ والمَواعِظِ، وغَيرِ ذَلِكَ مِمَّا تَكَلَّمُوا فِيهِ.

فَمَن سَلَكَ سَبِيلَهُم فَقَدِ اهتَدَى، ومَن سَلَكَ غَيرَ سَبيلِهِم، دَخَلَ فِي كَثرةِ السُّؤالِ والبَحثِ والجِدالِ والقِيلِ والقَالِ، فإِذا اعترَفَ لَهُم بِالفَضلِ، وعَلى نَفسِهِ بالنَّقصِ، كانَ حالُهُ قَريباً).

اللَّهُمَّ اهدِنا لأَحسَنِ الأخلاقِ لاَ يَهدِي لأحسَنِها إِلاَّ أَنتَ، واصرِف عَنَّا سَيِّئَها لاَ يَصرِفُ عَنَّا سَيِّئَها إِلاَّ أنتَ...

الخطبة الثانية

الحَمدُ للهِ الذِي رَفَعَ أهلَ العِلمِ دَرَجاتٍ.

- الوَقفَةُ الرَّابِعةُ:

مَعاشِرَ المُسلِمينَ:

واستِكمالاً لِما سَبَقَ يُقالُ: مِن أَوصافِ مَن خُيِّلَ لَهُ أَنَّهُ مِن أَشباهِ العُلَماءِ: هَذا الصِّنفُ مِنَ النَّاسِ الذِي ألبَسَ نَفسَهُ ثَوباً أَوسَعَ مِنهُ، وتَشَبَّعَ بِما لَم يُعطَ، ويَزدادُ الأَمرُ خُطورةً إِذا زاحَمَ العُلَماءَ الرَّبَّانِيِّينَ بِزَعمِهِ أَنَّهُ مِنهم، وتَكونُ القاصِمَةُ إِذا بَخَسَ حَقَّ العُلَماءِ وقَلَّلَ شأنَهُم.

قالَ الإِمامُ ابنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (وأَمَّا مَن عِلمُهُ غَيرُ نافِعٍ فَلَيسَ لَهُ شُغلٌ سِوَى التَّكَبُّرِ بِعِلمِهِ عَلى النَّاسِ، وإِظهارِ فَضلِ عِلمِهِ عَلَيهِم، ونِسْبَتِهِم إِلى الجَهلِ، وتَنَقُّصِهِم؛ لِيَرتَفِعَ بِذَلِكَ عَلَيهِم، وهَذا مِن أَقبَحِ الخِصالِ وأَردَاها، رُبَّما نَسَبَ مَن كانَ قَبلَهُ مِنَ العُلَماءِ إِلى الجَهلِ والغَفلَةِ والسَّهوِ، فَيوجِبُ لَهُ حُبُّ نَفسِهِ وحُبُّ ظُهُورِها: إِحسانَ ظَنِّهِ بِها، وَإِساءَةَ ظَنِّهِ بِمَن سَلَفَ).

وقالَ أَيضاً: (ومَن عِلمُهُ غَيرُ نافِعٍ: إِذا رَأَى لِنفسِهِ فَضلاً عَلى مَن تَقَدَّمَهُ فِي المَقالِ، وتَشَقَّقَ فِي الكَلامِ؛ ظَنَّ لِنَفسِهِ عَلَيهِم فَضلاً فِي العُلومِ أَوِ الدَّرَجةِ عِندَ اللهِ، لِفضلٍ خُصَّ بِهِ عَمَّن سَبَقَ، فَاحتَقَرَ مَن تَقَدَّمَهُ، وَاجتَرَأَ عَليهِ بِقِلَّةِ العِلمِ، وَلاَ يَعلَمُ المِسكينُ أَنَّ قِلَّةَ الكَلامِ مِنَ السَّلَفِ إِنَّما كانَ وَرَعاً وخَشيَةً للهِ، وَلَو أَرادُوا الكَلامَ وَإِطالَتَهُ لَما عَجَزُوا عَن ذَلِكَ).

وَقالَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى أَيضاً: (وَعلامةُ هَذا العِلمِ الذِي لاَ يَنفَعُ:

أَن يُكسِبَ صاحِبَهُ الزَّهوَ والفَخرَ والخُيَلاءَ، وطَلَبَ العُلُوِّ والرِّفعةِ فِي الدُّنيا والمُنافَسَةِ فِيها، وطَلَبَ مُباهاةِ العُلَماءِ ومُماراةِ السُّفَهاءِ وصَرفَ وجوهِ النَّاسِ إِليهِ، وقَد وَرَدَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّ مَن طَلَبَ العِلمَ لِذَلِكَ فَالنارُ النارُ.

وَالإِمامُ ابنُ رَجَبٍ فِي كَلامِهِ هَذا يُشيرُ إِلى حَديثِ جابِرِ بنِ عَبدِاللهِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « لاَ تَعَلَّمُوا العِلمَ لِتُباهُوا بِهِ العُلَماءَ، ولاَ لِتُمارُوا بِهِ السُّفَهَاءَ، وَلاَ تَخَيَّرُوا بِهِ المَجالِسَ، فَمَن فَعَلَ ذَلِكَ فَالنَّارُ النَّارُ» أَخرَجَهُ ابنُ ماجَهْ، والحاكِمُ وَصَحَّحَهُ، وَوافَقَهُ الذَّهَبِيُّ، وصَحَّحَهُ العِراقِيُّ فِي تَخريجِ الإِحياءِ[1].

([1]) رواه ابن ماجه (254)، والحاكم (86/1).

ومِن نَفائِسِ كَلامِ الإمامِ ابنِ رَجَبٍ فِي هَذ المَبحَثِ قَولُهُ: (وَرُبَّما ادَّعَى بعضُ أَصحابِ هَذهِ العُلومِ -يَعنِي العُلومَ غَيرَ النَّافِعَةِ- مَعرِفَةَ اللهِ وَطَلَبَهُ والإعراضَ عَمَّا سِواهُ، ولَيسَ غَرضُهُم بِذلكَ إلاَّ طَلَبَ التَقَدُّمِ فِي قُلوبِ النَّاسِ مِنَ المُلوكِ وغَيرِهِم، وإحسانَ ظَنِّهِم بِهِم، وكَثرةَ أتباعِهِم، والتَّعاظُمَ بِذلكَ عَلى النَّاسِ.

وَعلامَةُ ذَلِكَ: إظهارُ دَعوى الولايةِ، كَما كانَ يَدَّعِيهِ أَهلُ الكِتابِ، وكَما ادَّعاهُ القَرامِطَةُ والباطِنِيَّةُ ونَحوُهُم، وهَذا بِخلافِ مَا كانَ عَلَيهِ السَّلَفُ مِن احتِقارِ نُفُوسِهِم وازدِرائِها باطِناً وظاهِراً).

إلى أَن قَالَ: (ومِن علاماتِ ذَلِكَ: عَدَمُ قَبُولِ الحَقِّ والانقِيادِ إلَيهِ، والتَّكَبُّرُ عَلى مَن يَقُولُ الحَقَّ، خُصوصاً إن كانَ دُونَهُم فِي أَعيُنِ النَّاسِ، والإصرارُ عَلى الباطِلِ؛ خَشيَةَ تَعَرُّفِ قُلوبِ النَّاسِ إلى الحَقِّ، ورُبَّما أَظهَروا بِأَلسِنَتِهِم ذَمَّ أَنفُسِهِم واحتِقارَهِم عَلى رُؤُوسِ الأَشهادِ؛ لِيَعتَقِدَ النَّاسُ فِيهِم أَنَّهُم عِندَ أنفُسِهِم مُتواضِعُونَ فيُمدَحُونَ بِذلِكَ. وهُو مِن دَقائِقِ أَبوابِ الرِّياءِ، كَما نَبَّهَ عَليهِ التَّابِعونَ ومَن بَعدَهُم مِنَ العُلَماءِ.

ويَظهَرُ مِنهم مِن قَبولِ المَدحِ واستِجلابَهِ، ما يُنافِي الصِّدقَ والإخلاصَ، فَإنَّ الصَّادِقَ يَخافُ النِّفاقَ عَلى نَفسِهِ، ويَخشَى عَلى نَفسِهِ مِن سُوءِ الخاتِمَةِ، فَهُو فِي شُغلٍ شاغِلٍ عَن قَبُولِ المَدحِ واستِحسانِهِ).

وَفِي كِتابِ (المُوافَقاتِ) لِلإمامِ الشَّاطِبِيِّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى كَلامٌ عَن صِفَةِ عُلَماءِ السُّوءِ، قَالَ فِيه: (عُلَماءُ السُّوءِ هُم: الذينَ لاَ يَعمَلونَ بِما يَعلَمُونَ، وإذا لَم يَكونُوا كَذلكَ فَلَيسوا فِي الحَقيقَةِ مِنَ الرَّاسِخينَ فِي العِلمِ، وَإنَّما هُم رُواةٌ، وَالفِقهُ فِيما رَوَوْا أَمرٌ آخَرُ، أو مِمَّن غَلَبَ عَلَيهِم هَوىً غَطَّى عَلى القُلوبِ، والعِيادُ بِاللهِ)[1] انتَهى كَلامُهُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى.

اللهَ نَسأَلُ أَن يُطَهِّرَ مُجتَمَعَنا مِن كُلِّ ما يُسيءُ إلى عُلَمائِنا، وأَن يَحفَظَ لِعُلَمائِنا مَكانَتَهُم، وأَن يُعلِيَ دَرَجَتَهُم، وأَن يَكبِتَ حاسِدَهُم وشانِئَهُم ومُبغِضَهُم.

اللَّهُمَّ احفَظ عُلَماءَ السُّنَّةِ فِي كُلِّ مَكانٍ وزَمانٍ.

اللَّهُمَّ وَفِّق وُلاةَ أُمورِ المُسلِمينَ إلى ما فِيهِ صَلاحُ الإسْلامِ وَالمُسلِمينَ.

---

(1) «الموافقات» (39/1).